مساهمة الجزائر في دعم الأندلسيين واحتضانهم (1492- 1609م)

د. عبد القادر فكاير*

مقدمة: تعتبر قضية الأندلسيين أو الموريسكين حسب بعض التسميات من المسائل التاريخية التي كانت وتبقى تحظى بالكثير من الدراسات لأنها تتشعب إلى عدة نواحي. وسوف أتعرض في هذه الدراسة إلى موضوع مساندة الجزائر للأندلسيين خلال ثوراتهم ضد الإسبان، والدور الذي لعبته في استقبالهم على أراضيها. وأهم المحاور التي سأتطرق إليها: سياسة الإسبان تجاه الأندلسيين إثر سقوط غرناطة سنة 1492م، ثم أتحدث عن ردود فعل الأندلسيين تجاه هذه السياسة، والتي تراوحت بين الخضوع للضغوطات الإسبانية وبين الهجرة إلى خارج الأندلس. ولما اشتد الضغط عليهم قاموا ببعض الثورات مثل ثورة البيازين وثورة البشرات خلال سنتي (1500-1499)، وأهم ثورة تلك التي وقعت عام 1568م في عهد الملك فيليب الثالث الذي كان يتصف بشدته تجاه المسلمين الأندلسيين، ولمواجهة هذه المحنة استنجدوا بقوى إسلامية عديدة منها الجزائر، حيث طلبوا العون من علج علي الذي أمدهم بمختلف الوسائل. غير أن عدم نجاح الثورة جعلت الإسبان يصدرون قرارات عديدة لطرد الأندلسيين، كان من أهمها قرار سنة 1609م. وقد هاجر أغلبهم إلى سواحل بلاد المغرب، ومنها السواحل الجزائرية. لقد شمل ذلك النزوح الأندلسي الجماعي مختلف المناطق الساحلية الجزائرية حيث امتدت من القالة شرقا إلى رأس فالكون غربا، نذكر منها عنابة وبجاية والجزائر العاصمة ومستغام والسواحل الوهرانية، ومنهم من توجه إلى تلمسان.

1- سياسة الإسبان تجاه الأندلسيين بعد سقوط غرناطة 1492م: لقد أبدى الإسبان في السنوات الأولى من سقوط غرناطة سياسة لينة تجاه المسلمين، متظاهرين باحترام الاتفاق، غير أن الخشية والشك كانت تساور أنفسهم في أن يثور المسلمون، خاصة وأنه كان لديهم صلات بمسلمي الممالك المغربية والدولة العثمانية. ولكن الروح الصليبية التي تميز بها الملكان الكاثوليكيان، التي كانت واقعة تحت تأثير الكنيسة، جعلت سياسة التساهل مع المسلمين لم تدم طويلا، وبدأت تتحول إلى انتهاك شروط الاتفاق، وذلك بتعديل نصوصه. ففي سنة 1495م فرضت ضرائب

*- أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث والمعاصر - قسم التاريخ - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة خميس مليانة.

جديدة على المسلمين فقط. و لم تستمر سياسة التظاهر بالالتزام بالشروط أكثر من أربعة سنوات، حتى بدءوا في خرقها[1]. ففي سنة 1499م بدأت سياسة التنصير التي نادى بها الكاردينال خيمينيس عند انتقاله إلى غرناطة، وقد أدت تلك الحركة إلى اعتراض المسلمين، حيث ثار سكان حي البيازين في ديسمبر من نفس السنة. كما قام الكاردينال بغلق المساجد وحرق الكتب والمخطوطات التي بلغ عددها حوالي 800 ألف[2]. وفي 12 فيفري 1502م صدر مرسوم ملكي يخيِّر المسلمين بين النصرانية مغادرة الأندلس. وقد وصفت بعض المصادر الإسلامية تلك السياسة؛ فقد جاء في كتاب "أخبار العصر": «فلما رأى ملك الروم أن الناس تركوا الجوار[أي الهجرة]، وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن، أخذ في نقض الشروط... فصلا فصلا... وزالت حرمة المسلمين وأدركهم الهوان والذلة... وفرضت عليهم ... ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصير وأكرههم عليه... و لم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا من يقولها في قلبه» [3]. وقد زادت معاناة أهل الأندلس مع ظهور ديوان التحقيق الذي يقوم بإجراء تحريات عن حقيقة بقاء المسلمين على دينهم، وكان المدان ينال مختلف أنواع التعذيب منها الموت حرقا[4].

2- **ردود فعل الأندلسيين الأولى:** من بين ردود فعل الأندلسيين أن العديد منهم تنصر، خاصة عندما كان النصارى يستعملون الوعد والوعيد لتنصير الأعيان، وهذا ما جعل العامة يتبعونهم[5]. وهناك من كانوا يخفون إسلامهم. ولما وصلت أخبار معاناتهم إلى إخوانهم في بلاد المغرب وتخوفهم عن مدى صحة إيمانهم أرسل لهم أحد فقهاء الجزائر سنة 1504م، وهو أحمد جمعة المغراوي خطابا يطمئنهم بصحة إيمانهم، ومما جاء في ذلك الخطاب: «إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر ... فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها لفقيركم أو رياء، والغسل... ولو عوما في البحر...، إن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فاحرموا بالنية... وإن أكرهوكم على حرام فافعلوه مُنكرين بقلوبكم»[6].

كما أدت عمليات التنصير الإجباري إلى قيام الثورات، كالثورة التي وقعت في حي البيازين سنة 1499م لكنها قمعت بكل قوة، وسرعان ما اندلعت ثورة أخرى أعنف منها في جبال البشرات في جانفي 1500م، فاستولى الثوار على العديد من الحصون وقتلوا قسيسا القلعة اللذان كلفا بتنصيرهما وهما دي ميدلين (De Medlin) والونسو غاسكون (Alonso Gascon) ، كما أسروا العديد من سكان الأحياء المسيحية[7] ، وأرسل فرديناند قوات عسكرية بقيادة الدون ألونسو دي أغيار (Don Alonso de Aguillar) غير أن المسلمين ألحقوا بهم هزيمة فادحة فقتلوا

منهم الكثير على رأسهم دي غيار نفسه، وذلك في مارس من سنة 1501م. ولوضع حد لتلك الثورة لجأ الملك إلى إعلان العفو الشامل عن الثوار مقابل دخولهم في دين المسيحية، أو مغادرة البلاد دون أن يأخذوا أموالهم وممتلكاتهم إلا ثيابهم التي يلبسونها[8].

وللحفاظ على أرواحهم ودينهم اضطر الأندلسيون إلى الفرار إلى بلاد الإسلام، فعلى الرغم من عدم قدرة المسلمين سواء في المشرق أو في المغرب على تقديم العون العسكري أو المادي الكافي لهم بسبب الأوضاع الداخلية المتدهورة، إلا أنهم فتحوا لهم بلادهم، بل قطعوا البحر بقواربهم إلى ثغور الأندلس وساهموا في ترحيلهم إلى أوطانهم. إن أغلب تلك الهجرات كانت إلى الممالك المغربية وقليل منهم من هاجر إلى المشرق، فقد وصلت جماعة منهم إلى القسطنطينية ومصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام[9]. وهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس.

وكانت المدن الجزائرية قبل سقوط غرناطة تعج بأهل الأندلس مثل تلمسان وبجاية. وإثر بداية سقوط الحواضر الإسلامية الأندلسية في يد الأسبان بدأت الهجرة الجماعية تتوجه نحو سواحل الممالك المغربية، وقد اصطنع الأسبان لأنفسهم ذريعة متابعتة أولئك الفارين بالانتقام منهم ومن الذين ناصروهم وآووهم، فخططوا لاحتلال سواحل الممالك المغربية مع البرتغال، تلك الممالك التي كانت تعيش أوضاعا متدهورة رأوا فيها الفرصة المناسبة لتحقيق أغراضهم.

3- وضع الأندلسيين في عهد فيليب الثاني: لقد تميز عهد "فيليب الثاني" بالتعصب الشديد ضد المسلمين الأندلسيين، لأنه كان خاضعا لتأثيرات الكنيسة ورجالها؛ فلم تمض إلا سنوات قليلة على اعتلائه العرش حتى أصدر قوانين متعسفة ضد الأندلسيين؛ ففي سنة 1563م صدر قانون يحرم عليهم حمل السلاح دون ترخيص من الحاكم العام، كما صدر في عهده قانون تحريم استعمال اللغة العربية وارتداء الثوب العربي، كان ذلك في أول جانفي 1567م. لقد كانت هذه القوانين شديدة الوطأة على المسلمين، ووصفها أحد المؤرخين بكونها «أقسى من أن يتحملها شعب ما، فكيف بأحفاد المنصور وعبد الرحمن وبني سراج»[10]. كما أنهم تعرضوا لعملية نهب قاسية لأراضيهم بسبب صدور قرار مراجعة الأراضي والوثائق العقارية[11]. إلى جانب الإجراءات التي أصدرتها في حقهم محاكم التفتيش[12].

ووقعت تطورات اقتصادية واجتماعية وفكرية جديدة، حدثت في أوربا بما فيها إسبانيا، حيث نمت بها طبقة بورجوازية سواء لدى المسيحيين أو لدى المسلمين،

فتولد لدى الفئة الأولى شعورا بالكره ضد الفئة الثانية من المسلمين المزارعين والرعاة [13]، وهو ما جعل أحد الكتاب الغربيين يعتبر أن الأسباب الاقتصادية أدت أكثر من غيرها إلى وقوع النزاع في أوساط الطبقة الوسطى حيث يقول: إن «الطبقات الوسطى الأسبانية من حرفيين في المدن وزراع هي التي كانت ضد المسلمين، ولأسباب اقتصادية أكثر منها دينية»[14].

وإذا أردنا أن نضيف إلى تلك الأسباب أوضاعا أخرى ساعدت في زيادة ذلك التذمر من المسلين الأندلسيين، فنقول أنه حدثت مجاعة في كتالونيا وفي أراغون بسبب ضعف الإنتاج الزراعي الذي حدث خلال عاميي 1567-1568م[15]. كما شهدت البلاد تطور ديمغرافيا لدى المسلمين أكثر من المسيحيين، إذ ارتفعت نسبة النمو في بلنسية على سبيل المثال خلال سنة 1563م من 18.6 في الألف إلى 31.7 في الألف في مطلع القرن السابع عشر، وهو ما كان يتخوف منه الإسبان أن ترجح كفة المسلمين السكانية على حسابهم[16]. ويضيف البعض أن الحركة الدينية الإصلاحية البروتستانتية قد حفزت المسلمين في إسبانيا على الثبات والتمسك بعقيدتهم، وبالتالي شجعتهم على الثورة[17]. وكان تصاعد القوى الإسلامية في الحوض الغربي للبحر المتوسط قد أدى إلى استئناسهم بتلك القوى الجديدة آملين في تلقي الدعم من طرفها في حالة إعلانهم للثورة.

لقد ازدادت أوضاعهم سوءا منذ ذلك الحين، خاصة منذ مجيء فيليب الثاني إلى الحكم في إسبانيا، وهو ما دفعهم إلى إعلان الثورة من جديد، وسعوا إلى طلب المساعدات من إخوانهم المسلمين. فقد ذهب وفد في ربيع سنة 1567 إلى اسطنبول واستقبل من طرف شخصيات مسؤولة وعلماء. وكان السلطان سليم الثاني (1566-1574م) قد فكر في الاستعانة بفرنسا للقيام بعمل مشترك ضد إسبانيا، غير أن الظروف التي كانت تعيشها الدولة في حروبها على ضفاف البحر الأسود، وعلى الحدود الإيرانية لم تسمح له للقيام بنجدتهم [18].

4- استنجاد الأندلسيين بعلج علي: وعندما تولى علج علي الحكم في الجزائر في هذه السنة (1568م) أعطى للمسلمين الأندلسيين دفعا للقيام بثورتهم اعتمادا على الدعم الجزائري[19]. فقد أرسل الأندلسيون أحد رجالهم من مدينة ناريا(Narilla) يدعى باترال إلى مدينة الجزائر مرتين لمقابلة علج علي لإطلاعه عن مشروع ثورتهم، وطلب المساعدات الضرورية التي كانوا يحتاجونها[20]. وقد أبدى علج علي استعداده لتقديم المساعدات إليهم، ولهذا الغرض اجتمع عدد

من سكان مدينة الجزائر في أحد المساجد، وتمكنوا من جمع الأسلحة وتجنيد الرجال الراغبين في المشاركة في الثورة، وقد بلغ عددهم أربعة آلاف رجل.

لقد كان من المقرر أن تبدأ الثورة في يوم الخميس المقدس لدى المسيحيين الذي يصادف يوم 15 أفريل، فيكون النصارى مشغولين باحتفالاتهم وصلواتهم. وكانت فكرة زعيم الثورة المقررة هو فرج بن فرج[21] الذي انفق مع زعماء آخرين على حشد قوات كبيرة من جبال البشرات، فتزحف بسرية تامة إلى غرناطة عبر ضاحية البيازين لتفاجئ الحمراء وتقضي عليها، ويتم بذلك الاستيلاء على المدينة. غير أن السلطات الإسبانية اكتشفت المخطط مما أدى إلى تأجيل الثورة إلى موعد آخر[22].

ورغبة منه في تشتيت القوات الإسبانية ومساندة المسلمين هناك، حشد علج علي أربعة عشر ألف جندي مسلحين بالبنادق، وستين ألف رجل من السكان ومعهم أربعمائة جمل محملة بالبارود، ثم أرسلها إلى مزغران للانطلاق منها إلى وهران، وكان القصد من ذلك الهجوم هو إشغال الإسبان في وهران عن تحرك سفنه المكلفة بمساعدة الثوار الأندلسيين[23].

وفي نفس الوقت أرسل إلى السواحل الإسبانية أربعين سفينة، فسلكت طريقها إلى السواحل الواقعة في منطقة المرية بهدف مساعدة المسلمين وحمايتهم، غير أن السلطات الإسبانية اكتشفت أمر الثورة، فعثرت على مخازن السلاح، وألقت القبض على بعض الثوار، ولم يتمكن الأسطول الجزائري من إنزال حمولته من الرجال والسلاح إلى البر، وبالتالي لم يتمكن من تقديم العون لهم هذه المرة[24]، وتأجلت الثورة مرة أخرى إلى موعد آخر. غير أنه سرعان ما أعاد الثوار تجميع أنفسهم، وعندما حلت أعياد الميلاد في ديسمبر 1568م أعلنوا عن ثورتهم وذلك في قرية بيذنار في وادي لكون تحت زعامة هيرناندو دي كوردوبا (Hernando de Cordoba) الذي حمل اسما عربيا وهو محمد بن أمية[25]، والذي راسل المسلمين المنصرين يدعوهم فيها إلى العودة لدينهم الأصلي، وإعلان العصيان ضد النصارى. وقد استطاع بفضل تلك الجهود أن يجمع من حوله في فيفري 1569م مائة وخمسين ألف رجل، كان من بينهم خمسة أربعين ألف في سن حمل السلاح[26].

ومع استمرار الثورة في غرناطة، استمرت معها المساعدات الجزائرية التي أخذت تصل إليهم، فقد سارع علج علي إلى إرسال ستة سفن كانت محملة بالمدافع والذخيرة تم إنزالها قرب المرية وذلك في جانفي 1569م. كما أرسل مرة أخرى أسطولا يتألف من اثنين وثلاثين سفينة معبئا

بالجنود. لكنهم لم يتمكنوا من النزول بسبب حدوث عاصفة بحرية هوجاء أدت إلى تفرق تلك السفن، فحرم الثوار من دعمهم. أضف إلى ذلك أن الجزائر نجحت في أكتوبر 1569م في تقديم أربعة آلاف بندقية وكميات من الذخائر، فضلا عن بضع مئات من الجنود النظاميين ذوي الخبرة العسكرية ليقودوا الثوار المسلمين هناك[27]. كما استطاع الجزائريون نقل بعض المساعدات إليهم[28] رغم الحراسة الشديدة التي أقامتها السفن الإسبانية على سواحل البلاد لمنع الثوار من تلقي الإمدادات من الجزائر أو من أي جهة أخرى[29]. فقد أبدت إسبانيا فشلها في حراسة الساحل الثائر لأن البحارة الجزائريين كانوا يتوفرون على معرفة لشواطئ المنطقة.

تذكر بعض الروايات أن علـــج علي كان قد أراد الذهاب بنفـــسه إلى بلاد الأندلس ليتولى قيادة الجهاد بنفـــسه، غير أنه عدل عن فكرته، وفضل توجيه الضربات إلى الإسبان في أماكن أخرى بهدف تشتيت قواتهم، وجعلهم يحاربون على جبهتين، وهو ما قام به خلال خروجه في شهر أكتوبر 1569م إلى تونس لتحريرها من سلطة حاكمها العميل للإسبان، فيعد هذا التحرك بدون شك امتدادا لحرب غرناطة[30]. فقد تلقت إسبانيا خبر سقوط تونس في يد الجزائر بخوف شديد، فلم تجرؤ على إرسال قواتها إلى هناك لاستعادة سلطتها في تونس، لأن الحدث الأكبر الذي شغل ملكها "فيليب الثاني" هو إخماد ثورة غرناطة. وتـــمثلت خطته في القضاء عليها على النحو التالي:

1- وضع على رأس القيادة العامة أخاه غير الشرعي دون خوان، وذلك في أفريل 1569م.

2- انتقال الملك بنفسه في شهر ديسمبر إلى قرطبة ليكون أكثر قربا من مكان الثورة.

3- الحد من انتشار مدى الثورة إلى أقاليم المسلمين المنصّرين، وذلك بتهدئتهم عبر أسيادهم، وعدم التعرض لهم، أو عن طريق القوة.

4- عزل الثوار المعتصمين في جبال البشرات.

5- التفاوض مع قائد الثوار الحبقي، حيث توصل الطرفان إلى العفو التام عن جميع المسلمين الثائرين، وأن يقدم الثائرون أسلحتهم، على أن يخضعوا لهم في ظرف عشرين يوما ويسمح لهم بارتداء ملابسهم الوطنية. عودة المتطوعين من الجزائر وبلاد المغرب الأخرى إلى بلادهم دون إزعاج[31].

وفعلا فقد وضع ثلاثون ألف ثائر أسلحتهم في 15 جوان 1570م[32]، وهيئت بعض المراكب لعودة المتطوعين الجزائريين أو الذين جاءوا من المناطق المغربية الأخرى إلى بلادهم، لكن سرعان ما عادت الثورة للاشتعال من جديد، وهو ما جعل الإسبان يلجئون إلى أسلوب آخر للتخلص من

المسلمين، فقد لجأ الملك إلى إصدار قرار النفي في 28 أكتوبر 1570م[33] كإجراء نهائي لإنهاء الثورة وذلك بعزل الذين ظلوا معتصمين في الجبال، وبهذه الطـــريقة تم تهجير أكثر من مائة وخمسين ألف شخص[34]. وقد ترتب عن هذه الثورة نتائج عديدة نذكر منها:

- تشتيت الغرناطيين في قشتالة كلها.
- إيقاظ مشاعر السكان في تلك المناطق التي كانت حتى تلك اللحظة تتميز بالعفوية واللامبالاة.
- تطور الصراع بصورة شديدة، واستمراره لوقت طويل.
- تعقد الموقف بتدخل أجنبي.

وهكذا تم تشريد هذا المجتمع؛ فتعد هذه المأساة "النفي الأصغر" كما سماه بعض المؤرخين، وكان مقدمة لمأساة النفي الأكبر لكل المسلمين الأندلسيين الذي طبقه الملك "فيليب الثالث" خلال الفترة ما بين 1609 و1611م.

5- الطرد النهائي للأندلسيين ومساهمة الجزائر في احتضانهم: لقد ارتبطت فكرة الطرد النهائي للمسلمين الأندلسيين بعهد الملك فيليب الثالث[35]، الذي كان مختلفا عن والده المتصف بالاستبداد وذو إرادة قوية، بينما تميز ابنه باللين وبسهولة التأثير فيه. لقد أخذت الأصوات تتعالى في عهده وتدعو إلى التخلص من الأندلسيين، خاصة بعد فشل الحملة الإسبانية على الجزائر خلال سنة 1601م[36]، حيث تولى الدعوة لها رئيس الأساقفة ريبيرا، الذي كان له التأثير الأكبر في قرار الطرد، عندما أصدر تقريرين أولهما كان في أواخر سنة 1601م، جاء فيه: «أنه إذا لم يتم طردهم فسيكون ضياع إسبانيا»، أما الثاني فهو مؤرخ في 2 جانفي 1602م، والذي أصرّ فيه على طردهم « لأنهم هراطقة وخونة للملك»[37] . ويبدو أن هدف التقرير الثاني هو إبطال مفعول استشارة مجلس الدولة الذي وقع في 3 جانفي 1602، خاصة بعد فشـــل الحملة على الجزائر التي قام بها أندري دوريا، وكان قد اشترك في تلك الجلسة الدون خوان إيدياكيس (Juan Idiaquis) الذي كان أحد منظمي تلك الحملة، لكنه اضطر للتراجع نظرا للحالة السيئة للبحر كما تقول الكتابات الأسبانية[38].

لقد أدت تلك الدعوات إلى تأثر الملك بآراء من كانوا حوله، ومن أهم الشخصيات التي أثرت فيه الدون دي ليرما (don de Lerma)، وكذلك أسقف بلنسية خوان دي ريبيرا (Juan de Ribera) سالف الذكر، كما تأثر برأي الملكة التي كانت مؤيدة للطرد إلى جانب كبار رجال الكنيسة.

إن الذي أدى إلى تأخير صدور قرار الطرد إلى غاية سنة 1609م انشغال إسبانيا بأعمال عسكرية في هولندا وفلندا، كما كانت منشغلة بحركة البروتستنت في ألمانيا. وشهدت إسبانيا في تلك الأثناء وضعية مالية صعبة أدت إلى إعلان إفلاس جزئي في الخزينة الملكية سنة 1607م، فلجأ مساعدو الملك إلى الرغبة في السلم، أسفر عن توقف الأعمال العسكرية في فلندا، وإلى إبرام الهدنة مع هولندا سنة 1609م لمدة اثنتي عشرة سنة[39].

لقد شهدت السنة ذاتها صدور قرار الطرد الذي تم إعداده أولا في بلنسية، وقبل الشروع في تنفيذه وضعت كل الإجراءات العسكرية الضرورية تحسبا لاندلاع ثورة أخرى من جانب المسلمين[40]. وفي 4 أفريل 1609م تم التوقيع على القرار في سيغوبيا (Ségovia) تحت تبرير الحفاظ على أمن البلاد. أما الجانب الديني فلم تتم الإشارة إليه إلا كعامل ثانوي. كما أشار القرار إلى اتصالات الأندلسيين مع أهالي شمال إفريقيا، وتقرر أن يبدأ بطرد البلنسيين، ولهذا الغرض تم إعداد تجهيزات الترحيل بسرية تامة، حيث صدرت أوامر بإرسال سفن من إيطاليا إلى جزيرة مايورقة، ومنها يتم توجيهها إلى موانئ الترحيل، حيث تم جمع خمسين سفينة كبيرة وأربعة آلاف جندي خلال صيف تلك السنة، وقام كل خيالة قشتالة ومليشيا وخفر مملكة بلنسية بحراسة الحدود. وتولى الأميرلاي أوكندا على رأس سفن بحرية المحيط حراسة السواحل الإفريقية[41].

وأهم الفئات الإسبانية التي أبدت تحفظا عن القرار هم النبلاء والسادة الذين كان لديهم أتباع من المعنيين بالطرد، حيث اجتمعوا ووضعوا تقريرا رفعوه إلى المجلس العام، لكنهم لم يقدروا الحصول على أي شيء من الملك الذي جزم بأن القرار لا رجعة فيه، غير أنهم غيّروا رأيهم في القرار عندما علموا بتفاصيله. أما بالنسبة للأندلسيين فقد شرع بعضهم في القيام بهجرة إرادية قبل صدور القرار، وذلك منذ سنة 1608م عندما وصل إلى أسماعهم ما دار في بعض الاجتماعات حول ترجيح فكرة الطرد، فقد توجه بعض الأغنياء من أوبيدا وبائيدا وبعض القرى من مملكة جيان إلى فرنسا عبر جبال البرانس عن طريق عدد من الوسطاء مقابل أموال كثيرة[42].

لقد استمر تحضير إجراءات الطرد حوالي ستة أشهر، وفي 22 سبتمبر أعلن القرار من طرف الوالي الماركي دي كاراسيسنا الذي يمنح فيه ثلاثة أيام فقط يتوجه خلالها المسلمون إلى النقاط المحددة لهم، وبإمكانهم أن يحملوا معهم ما يستطيعون من أموالهم الخاصة، على أن يتركوا ما عجزوا عن نقله سليما، وسيتعرض لحكم الإعدام كل شخص أخفى تلك الأموال أو حطمها. وقد حظي النبلاء بحق امتلاك البضائع التي يتركها أتباعهم، كما سمح لهم باختيار ستة أسر من كل مائة ليبقوا

معهم، على أن يكونوا مخلصين لنصرانيتهم. كما استثني من الطرد الأشخاص الذين عاشوا بين النصارى منذ سنين أو الذين تناولوا القرابين في الكنائس بشهادة رجال الدين المسيحيين[43].

لقد نقلت السفن من موانئ الترحيل التي امتدت ما بين أليكانت وبيناروث في الساحل الشرقي للبلاد خلال شهر أكتوبر آلاف الأندلسيين، حيث وصف أحد مؤرخي أليكانت العملية بما يلي: «لقد كان الناس في الطرق مثل النمل يثيرون إعجاب مشاهديهم... أما يوم الركوب فقد امتلأت فيه الشوارع والميادين بطريقة يتعذر معها السير، واستمر ذلك لوقت طويل لأن السفن والمراكب قامت بما لا يحصى من الرحلات»[44]، خاصة من موانئ أليكانت وبلنـــسية وبناروث ومونكوفاز، إلى جانب الرحلات التي تمت عبر الموانئ الأخرى.

لقد أحدثت تلك الإجراءات وقعا سيئا في نفوس الأندلسيين المعنيين بالطرد فإلى جانب الهجرة الطوعية التي بدأوا فيها قبل صدور القرار؛ قام هؤلاء في بعض الأقاليم للتعبير عن رفضهم عما صدر في حقهم عن طريق التمرد والثورة، وتجلى ذلك على الخصوص في بعض قرى بلنسية المحلية، حيث صعد أهل هذه المناطق بنسائهم وأطفالهم إلى مرتفع كورتيس كانوا تحت قيادة أحد رجالهم يدعى طوريقي يساعده أحد الفقهاء، فجمعوا بعض الأسلحة وقاموا ببعض الأعمال الدفاعية، وتطلب القضاء عليها مجيء قوات من إيطاليا استطاعت القضاء على عدد كبير من الثوار، ورغم ذلك فإن زعيم الثورة ظلّ ومن معه من الرجال مستمرا في الدفاع ورفض الاستسلام، إلى أن تم إلقاء القبض عليه وإعدامه في بلنسية[45]. ووقعت أحداث مماثلة في لامارينا في أليكانت، حيث ترك حوالي عشرون ألف شخص قراهم وحرقوا بعضها الآخر[46]، وقتلوا بعض النصارى، وهاجموا بعض الكنائس، ثم جمعوا بعض مواد التموين في الجبال القريبة من كاجوسا. وقد هاجمتهم بعض فرق الجيش انطلاقا من ميناء دانية تساعدهم بعض المليشيات وبعض العامة طمعا في الغنائم[47]، حيث ذكر "هورتز وبنشت" أن «الأوصاف التي تركها لنا كل من "فونيسكا وإيسكولانا" تسبب قشعريرة.

كتب إيسكولا يقول: "في مرتفعات بوب كان يوجد عددا كبيرا من القتلى، أما الآخرون فقد وصلوا إلى حالة كبيرة من التعاسة، وكان الآباء يتركون أولادهم لمن يعرفونهم من النصارى بسبب الجوع، بل وصل الأمر إلى أنهم كانوا يبيعونهم للجنود الأجانب مقابل قطعة من الخبز أو حفنة من التين، وكانوا يمشون في الطريق إلى الرحيل وقد سادهم الضعف، وقد أخذ منهم أبناؤهم ونساؤهم، وحتى الثياب التي كانوا يحملونها نزعوها عنهم لدرجة أن أحدهم يصل إلى السفينة نصف عار أو عار تماما»[48].

و لم يبدأ تنفيذ قرار الطرد بإقليمي أندلوسيا ومرسية إلا في 10 جانفي 1610م. أما فيما يتعلق بمسلمي غرناطة فقد صدر في حقهم قرارا آخر في 30 مارس 1611م، وكان يعني الأندلسيين الذين فلتوا من القرار وبقوا في المملكة، مستفيدين من المواد القانونية التي كان يتضمنها القانون.

لقد اختلفت تقديرات عدد المهجّرين الأندلسيين؛ فبعض التقديرات الإسبانية وضعتها في حدود الثلاثمائة ألف، وقدّرهه ألونسو بنونانريث مؤلف كتاب "تاريخ بلنسية" بـــ270000 شخص، أما الكاتب "بليدا" فقد حدد عددهم بـــ340672 شخص، غير أن هناك من رفع ذلك الرقم إلى المليون، وهو الذي صار يحظى بثقة الكثيرين، ومن دون شك فهو الرقم المرجّح[49].

أما عن الوجهة التي سلكها هؤلاء المسلمين؛ فإن الأغلبية منهم قد رحلوا إلى شمال إفريقيا، سواء كانت هجرتهم طوعية أم قسرية، ذلك لأن هذا الإقليم كان الأقرب والمشابه لطبيعة المعيشة في مختلف نواحيها. كما أنه كان منذ وقت قريب يستقبل أعدادا منهم؛ فإلى جانب تونس والمغرب، كانت الجزائر قد استقبلت أعدادا كبيرة من الأندلسيين وبخاصة من البلنسيين الذين صدر في حقهم قرار الطرد في يوم 22 سبتمبر 1609م، وقد أدى ذلك إلى طرد ثمانية وعشرين ألف من ميناء دانية، وخمسة عشر ألف من ميناء بلنسية نقل الكثير منهم نحو مدينة وهران[50]. كما ذهبت جماعات أخرى نحو مدينة الجزائر، وأغلبهم كانوا من استيرامادورا (Esteramadure) والمانشا (LaMancha)، وأراغون(Aragon). لقد انتهى الأمر بأغلبهم إلى البقاء في تلك المدينة التي كانت تذكرهم ببلنسية، ولجمال ضواحيها وكثرة بساتينها، كما أنهم التقوا فيها بالأندلسيين الذين سبقوهم إليها خلال القرن السادس عشر.

وهناك من الأندلسيين من انتقل إلى الأراضي الجزائرية عبر البلاد الفرنسية بعد صدور قرار ملكي في أفريل 1610م يدعو فيه مدن الجنوب الفرنسي بأن يوجهوا المهاجرين إلى أقرب ميناء لترحيلهم[51]. وكان مما شجع هؤلاء الأندلسيين على التوجه إلى الجزائر هو مراسلة من كانوا بتلك المدينة إخوانهم الذين انتقلوا إلى بلاد مسيحية أخرى، عندما سمعوا بسوء المعاملة التي كانوا يتلقونها، فعلى سبيل المثال راسل رجل من الجزائر يدعى مولينا رجلا آخر من تروخيغو، وبعد أن وصف له المعاملة السيئة التي تلقاها ومن معه في مرسيليا، أضاف قائلا: « كنا هناك، ويزيد عددنا على ألف، قرر بعضنا الرحيل من تلك المملكة إلى مكان آخر أكثر راحة. أما نحن فقد ذهبنا إلى ليفورنا [الإيطالية]، وقد حدث لنا مثل ما حدث في مرسيليا. ونظرا لأن السادة هناك يريدوننا من أجل استغلالنا في الزراعة وغيرها من المهن الدنيئة التي لا يريدها عامة الناس هناك، حيث أن أغلبهم من التجار والحرفيين اتفقنا أن نذهب إلى المكان الذي يقرره الملك، وهكذا أتينا إلى الجزائر» [52].

لقد شمل ذلك التروح الأندلسي الجماعي مختلف المناطق الساحلية الجزائرية امتدت من القالة شرقا إلى رأس فالكون غربا، نذكر منها عنابة[53] وبجاية والجزائر ومستغام والسواحل الوهرانية، ومنهم من توجّه إلى تلمسان. بالإضافة إلى هذه المدن استوطن الأندلسيون في مدن كثيرة أخرى نذكر منها المدية وملیانة والبليدة والقليعة ودلّس وجيجل وبرشك وشرشال وقسنطينة وأرزيو.

الهوامش:

(1) أنطونيو دومينغيز هورتز وبرنارد بنشت، تاريخ مسلمي الأندلس، ترجمة عبد العال صالح طه، دار الإشراق، ط.1، قطر، 1988، ص.22 ؛ أخبار العصر، ص. 129.---- (2) نفسه، ص.22.

(3) مجهول أخبار العصر في انقضاء دولة بين نصر، في شتوبران أليكونت دي، الإسلام في الأندلس، آخر بني سراج، ترجمة: الأمير شكيب أرسلان، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص. 130.

(4) للاطلاع عن إجراءات محاكم التفتيش، راجع : لويس، كارديك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، منشورات المجلة التاريخية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، تونس، 1983، صص.89 – 120.

(5) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط.1، مطبعة مصر، القاهرة، 1989، ص.229.

(6) أنظر الناص الكامل للفتوى في: عنان، نهاية الأندلس، ط.2، 1958، صص.325 –327.

(7) Luciens dollfus , Etudes sur le Moyen age Espagnol ,Leroux , Paris ,1894 , p.319.

(8) أخبار العصر، ص. 130.

(9) أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، المجلد 4، دار صادر، بيروت، 1968، ص.528.

(10) Stanley Lane Pool , The Moors in Spain , Beirut , p.237..

(11) أنطونيو دومينغيز وآخرون، مرجع سابق، صص.37-38.---(12) للاطلاع على تفاصيل تلك المحاكم، أنظر : كارديك مرجع سابق، صص.90-120.---(13) د. ليلى صباغ، ثورة مسلمي غرناطة عام 976ه (أواخر عام1568) والدولة العثمانية، الأصالة، العدد، 27، ص. 147.

(14) P. Hauser , Les debuts de l'age moderne , Paris, 1946, p.23.

(15) صباغ، صص.134.---(16) نفسه، صص.134-135.---(17) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، أنظر كارديك ، صص.121-143.---(18) سي يوسف، مرجع سابق، ص. 96.

(19) Moulay Belhamissi , Marine et Marins d'Alger ,T.2 , B.N.A., Alger,p.87.

(20) د.عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضـــية الموريسكيين، مجلة التاريخ المغربية، العدد.23-24 نزفمبر 1981، ص.196.

(21)كانت مهنته صباغا، لكنه كان رجلا جريئا، يبدو أنه كان ينتمي إلى عائلة بني سراج من أشراف غرناطة أيام الحكم لإسلامي

(22) عنان، مرجع سابق، ص. 265.

(23) Diego de Haedo, Histoire des rois d'Alger , traduit par: H.D. Grammont, Revue Africaine, t.24, 1880, p.404, sous – titre (1).

(24) عزيز سامح ألتر، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، ترجمة د. محمود علي عامر، ط.1، دار النهضة العربية ، بروت، 1989، ص.226.

(25) هورتز، مرجع سابق، ص.41؛ صباغ، ثورة مسلمي غرناطة...، ص. 150.

(26) Paul Auphin , Histoire de Méditerranée, Coll. L'Ordre du jour, Table ronde, Paris, 1967, Paris, p.181.---- (27) Haedo , Histoire des rois ..., P.404 , sous-titre (1).

(28) كانت تتمثل إلى جانب الرجال والأسلحة مختلف المواد الغذائية كالأرز والقمح والدقيق، أنظر: Fernand Braudel , La Mediterannée et le monde méditerranéen a l'poque du Phillipe II, Armand Colin, 5è ed., t.2, 1982 ,T.2, p.361.

(29)صباغ، ص.151.---(30) عندما تولى علج علي حكم الجزائر في سنة 1568، راسله أعيان تونس للتخلص من نظام الحكم الذي كان خاضعا لسلطة الإسبان.

(31) Alfred Motel, Fatio, L'Espagne au 16 et 17ème. Siècles, Heinninger, Paris-Madrid, 1978, p.3.

(32) Braudel , La Méditérannée..., T.2, p.367.

(33)عنان، نهاية الأندلس ...، مرجع سابق، ص. 274.

(34) Henri Lapeyre , Geographie de l'Espagne morisque , S.E.V.P.E.N. Paris , 1959, p.122.

(35) ولد في مادريد سنة 1578، اعتلى عرش أسبانيا في سنة 1598 الذي استمر فيه إلى غاية سنة 1621.

(36) فقد ذكر أن الأندلسيين عندما علموا بأن أسطول الملك يتأهب للقيام بحملة ضد الجزائر سارعوا إلى إخبار أهلها، ولما فشلت الحملة أقاموا حفلات كبيرة. أنظر: كارديك، ص.84.---(37) هورتز وبنشت، مرجع سابق، ص. 206.---(38) نفسه، ص.207.

(39) Luis Bertrand , Histoire d'Espagne , Fayard , Paris, 1932, p.464.

(40) Rafael Ballester , Histoire de l'Espagne , Traduit de l'espagnol par : Théodoric Lagrand , Payot , Paris , 1928 , p.197.

(41)هورتر وبنشت، ص.222.---(42)كان من هؤلاء الوسطاء رجل موريسكي في مارسيليا يدعى إبرهيم آغا الذي هرّب جزءا كبيرا من الأثرياء الأندلسيين. أنظر هورتر، ص.221.---(43) هورتر وبنشت، ص. 224.---(44) نفسه، ص.226-227.

(45) هورتر وبنشت، ص.228.---(46) كما حدث في فينيسترات، وريجيو.---(47) هورتر، ص.228.---(48) نفسه، ص229.

(49) للاطلاع عن تلك التقديرات أنظر: Henry Charles Lea , The Moriscos of Spain ,their conversion and expulsion , Burt Franklin , New-York , 1968 , pp.359-360.

(50) وذلك عبر مقاطعة (Province du Midi)، للوصول إلى مرسيليا، ومنها يتوجهون إلى السواحل المغربية بما فيها السواحل الجزائرية. أنظر:.Heinrich, Op.cit., p.220

(51) يذكر أن الملك الفرنسي هنري الرابع لم تكن لديه مشاعر دينية ضد الأندلسيين، وأنه قد أبدى استعداده لاستقبال الذين يعتنقون الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي، غير أن الحجم الكبير الذي انتقل إلى فرنسا، وعدم استعداد مواطنيه لاستقبال أشخاص على غير دينهم، وفي حالة يرثى لها من الفقر والمرض جعلت الملك يغير من رأيه. أنظر كارديلك، مرجع سابق ن ص.140، وكذلك. أنظر: هورتر ، صص.271-272.

(52) هورتر، ص. 275.

(53) من الشخصيات الأندلسية التي حلت بعنابة، مصطفى قرنداش، الذي التجأ إلى هذه المدينة بعد طرده من تونس، فاعتنى في عنابة بزراعة الزيتون، كما أدخل تقنيات زراعية جديدة، أنظر: دي إيبالزا، حول ثلاث أحداث، مقال سابق، صص.117-118.

Abstract:

This study deals with the Algeria support of the Andalusians during their struggle with the Spanish's war of Reconquista.In this respect the Algerians played a great role in accepting many Andalusians (their coreligionist) as a settlers in their country.However,we tried to stress the development of Spanish's policy towards the Andalusians after the collapse of Grenada in 1492, and its consequences upon the Andalusians whom they prefered to stay in Andalusia and for those whom they chosed to emigrate to the Maghreb or Algeria.The Andalusians they did not accepted the Spanish take over,and they fought against theme by all means.They lanched many revolts against the Spanish such as the revolts of (Albeazin and Bacharate in 1499-1500),particularly that of 1568.

This strong revolt was under the Spanish manarch Philip III ,who lanched a great waves of wars against the Andalusians in Spain.Under these great pressure,the Andalusians asked some help from their brother Muslims like the Algerians in the Maghreb at the time of Eulge Ali who gave support and help to the Andalusains dramatic situation.In fact it was not a wars like the Muslims had fought before against the Spanish,these wars were a racial and horribal wars without petty or sympathy.Philip III took many decrees against the Andalusians'tragedy like that of 1609 which forced theme to escape to other places of haven like some coastline towns of the Maghreb,which stress from Annaba ,Bejaia, Algiers, Mostaghanem ,Oran until Tlemcen